

مكانة المعرفة في فكر محمد حسين الطباطبائي

The Status Of Knowledge In The Thought Of Mohammed Hussein Tabatabai
Le Statut Du Savoir Dans La Pensée De Mohammed Hussein Tabatabai

د. محمد بن سباع*

جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018/09/20

تاريخ القبول: 2019/03/10

تاريخ النشر: 2019/06/22

ملخص: يتناول هذا البحث إسهامات الطباطبائي في مجال المعرفة، والتي يمكن حصر أهمها في تمييزه بين العلم الإلهي والعلوم الإنساني مؤكداً على محدودية العلم الإنساني أمام العلم الإلهي. أما عن مصدر المعرفة، فقد بين أن المعرفة حسية وعقلية في ذات الوقت، لذلك نجد نفي اعتبار العلم مادياً فقط كما ترى الفلسفات المادية، بل العلم عنده مادي وروحي، ومنه تمييزه بين العلم الحسوري والعلم الحسولي؛ فالأول هو علم بوجود خارجي أما الثاني فهو نظر عقلي في هذا الوجود، ولأجل تبيان حقيقة العلاقة بين الإدراك والواقع فقد ميز بين الإدراكات الحقيقية الإدراكات الاعتبارية.

الكلمات المفتاحية: محمد حسين الطباطبائي؛ المعرفة؛ العلم الإنساني والعلوم الإلهي؛ العلم الحسوري والعلم الحسولي؛ الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية.

Abstract: This research deals with the contributions of Tabatabai in the field of knowledge, the most important of which is the distinction between the divine and human sciences, stressing the limited human science before the divine science. As for the source of knowledge, it has been shown that knowledge is both sensual and mental at the same time, so we find it that it rejects science as material only as it sees material philosophies, The first is the knowledge of an external existence, the second is a mental consideration of this existence, and in order to show the reality of the relationship between perception and reality, it distinguished between real perceptions and legal perceptions.

Key words: Mohamed Hussein tabatabai; Knowledge; human science and divine science; science obtenir et science presence; real perceptions and legal perceptions.

Résumé : Cette recherche porte sur les contributions de Tabatabai dans le domaine de la connaissance, la plus importante étant la distinction entre les sciences divines et les sciences humaines, soulignant la science humaine limitée avant la science divine. En ce qui concerne la source de connaissance, il est clair que la connaissance est à la fois sensuelle et mentale, nous la trouvons donc comme une matière matérielle, mais la science est matérielle et spirituelle et fait la distinction entre science de la civilisation et science appliquée; Afin de montrer la réalité de la relation entre la perception et la réalité, il a fait la distinction entre les perceptions réelles et les perceptions juridiques.

Mots clés:

Mohamed Hussein tabatabai ; La connaissance ; science humaine et la science divine ; science obtenir et science présence ; perceptions réelles et perceptions juridiques

مقدمة:

يُعتبرُ مبحث المعرفة من أهم مباحث الفلسفة، فقد عرف هذا المبحث تحولات كثيرة بدءاً بالعصور القديمة مروراً بالعصر الحديث وصولاً إلى الفترة المعاصرة وذلك من ناحية القضايا والإشكاليات التي يشتغل على دراستها، كما أنه كان ولا يزال محل اهتمام كبير من طرف الفلاسفة والمفكرين سواء الغربيين منهم أو المسلمين. وكما يؤكد على ذلك أغلب الدارسين والمختصين، فإن اهتمام الفلاسفة الغربيين بالمعرفة والمشكلات المرتبطة بها أكثر من اهتمام الفلاسفة المسلمين خصوصاً، إذ أن اهتمام متفلسفة الإسلام خصوصاً القدماء منهم بالمسائل المعرفية لم يكن بذات القدر، إذ أننا لا نجد أحداً منهم صَنَّفَ كتاباً مستقلاً لهذه المسائل، وإنما كان اهتمامهم بها ثانوياً في ثنايا مباحث أخرى كمبحث الوجود مثلاً، إضافة إلى أن أغلب ما قالوه كان بتأثير من الفلاسفة اليونانيين ونُحِص بالذكر كل من أفلاطون وأرسطو.

لكن، وعلى الرغم من أن الاهتمام الحقيقي بالمعرفة كان في الفلسفة الغربية الحديثة مع أغلب فلاسفتها خصوصاً العقلانيين منهم من أمثال رينيه ديكارت وليبنز والتجريبيين من أمثال جون لوك ودفيد هيوم، وغير هؤلاء، إلا أن الملاحظ هو عودة الاهتمام الجاد والعميق بالمعرفة في الفكر الإسلامي المعاصر حيث يُعَدُّ محمد حسين الطباطبائي نموذجاً متميزاً جداً في هذه المجال؛ وذلك لأنه اهتم في أغلب مؤلفاته بالمعرفة إلى درجة أنه خَصَّصَ بعض الكتب المستقلة لدراسة قضاياها ومشكلاتها، وهذا ما لم نألفه من قبل في الفلسفة الإسلامية الكلاسيكية، بل إنه عمل على صياغة منظومة متكاملة لمباحث المعرفة، فكان له أن انتقد مواقف من سبقوه خصوصاً منهم الفلاسفة الغربيين، واتخذ لنفسه موقفاً جديداً حاول من خلاله تقديم حلول للكثير من المشكلات التي تُعَدُّ من رواسب هذه الفلسفات السابقة.

إننا نهدف من وراء هذه الدراسة إلى التعرف على أهم الإسهامات التي قدمها الفكر الإسلامي المعاصر في مجال المعرفة، وذلك من خلال أنموذج محمد حسين الطباطبائي، وهو مبرر تسميتنا لها بـ"مكانة المعرفة في فكر محمد حسين الطباطبائي"، لذا فإن اختيارنا لهذا الأنموذج لكان بالنظر إلى قيمة وأهمية الإسهامات التي قدمها الطباطبائي في مجال اعتُبر من قبل أنه حَكَّرَ على الفلسفة الغربية، ومنه فإننا نسعى من خلال التعرف على الإضافة التي قدمها الطباطبائي إلى تبيان أن الفكر الإسلامي المعاصر ليس كما يُروَّجُ له على أنه تقليد وإتباع للفكر الغربي، وإنما فيه من جوانب التجديد والإبداع ما يجعله متميزاً بقضاياها وإشكالاته ومواقف مفكره.

تكمن أهمية هذا الموضوع والذي يتطرق إلى أهم ما قاله محمد حسين الطباطبائي في مجال المعرفة والقضايا المرتبطة بها، في أنه يُظهِرُ تميز محمد حسين الطباطبائي في دراسة المعرفة وفق منظور إسلامي، ذلك أن الطباطبائي لم يتوقف عند حدود ما قاله غيره من المفكرين سواء الغربيين أو المسلمين وإن كان متأثراً ببعض منهم، وإنما حاول أن يتخذ لنفسه موقفاً خاصاً هدفه التجديد والإضافة لا تأكيد ما هو متعارف عليه، لذا فإن ما وجب التأكيد عليه هنا، ونحن بصدد دراسة إسهامات الطباطبائي في مجال المعرفة، هو أنه على الرغم من تأثر الطباطبائي بآراء متفلسفة الإسلام من أمثال الفارابي وابن سينا

وصدر الإسلام الشيرازي وغيرهم، كما لم يغفل عن الإطلاع على أفكار الفلاسفة الغربيين خصوصاً منهم المحدثين والمعاصرين، إلا أنه لم يتوقف عند حدود آراء هؤلاء ولا أولئك، وإنما شقَّ طريقه بنفسه فكانت له آراؤه الخاصة إزاء المعرفة. وعليه سنحاول في هذا البحث أن نجيب عن تساؤلين رئيسين هما: ما موقف محمد حسين الطباطبائي من أهم المشكلات المتعلقة بالمعرفة؟ وما هي أهم الإسهامات التي قدمها في هذا المجال؟

أولاً: مصدر المعرفة وقيمتها

يعتبر محمد حسين الطباطبائي* أهم فيلسوف مسلم معاصر اهتم بالمعرفة، وقبل الخوض في موقفه من مسألة مصدر المعرفة وغيرها من المسائل الأخرى، وجب التأكيد هنا على أن مشكلة مصدر المعرفة طرحت بجدّة مع الفلاسفة الغربيين في العصر الحديث، وإن أهم خصيصة تميز هذه المسألة على الرغم من الاختلاف الذي كان سائداً بين الفلاسفة حولها، هو أن نسق الفيلسوف يتحدد بحسب موقفه من هذه المشكلة؛ فإذا كان الفيلسوف يعطي الأولوية للعقل اعتبرناه فيلسوف عقلياً أما إذا كان يرجع المعرفة إلى الحس صُنِّفَ على أنه فيلسوف تجريبي، إلا أن ما يميز الطباطبائي تحديداً -خصوصاً عن غيره من متفلسفة الإسلام- هو ما أشرنا إليه سابقاً، ونؤكد الآن من أنه: "تناول نظرية المعرفة ومسائلها بشكل مفرد ومستقل، وهي ظاهرة غير مسبوقة في الفلسفة الإسلامية؛ ذلك أن الفلاسفة الإسلاميين لم يفرّدوا مسائل نظرية المعرفة بالبحث المستقل قديماً وحديثاً، وإنما غاية ما تطرقوا إليه بعض مسائل المعرفة والتي بحثوها بشكل مشتت في مختلف فصول علمي المنطق والفلسفة، كما يلاحظ ذلك في بحث الوجود الذهني وبحث العلم والعالم والمعلوم. أما الطباطبائي فقد كان فريداً وسابقاً في بحث مسائل نظرية المعرفة بشكل مستقل" (المطوري مازن، 2016، 182). يتجلى لنا المنظور الإسلامي في دراسة الطباطبائي للمعرفة من خلال تعمقه في دراسة قضايا المعرفة ومشكلاتها فقد تبين له أن الإنسان يسعى للوصول إلى المعرفة ولكن دون بلوغ المعرفة المطلقة؛ وذلك لمحدودية قدرته وتحديد أمام العلم الإلهي، وهذا ما أوضحه الطباطبائي من خلال تمييزه بين ثنائية

* ولد السيد محمد حسين الطباطبائي في 29 من ذي القعدة 1321هـ 1904م في قرية تدعى (شادكان) من (تبريز) شمال إيران. ترجع نسبة الطباطبائي إلى أحد أجداده في السلالة الحسينية المباركة المعروف بطباطبا بن إسماعيل الديباج من أحفاد الإمام الحسين، توفيت والدته وهي تضع أخاه السيد محمد حسن المعروف بالإلهي الطباطبائي، وكان له من العمر خمس سنوات، ثم توفي أبوه وهو في سن التاسعة. ينظر: آل صفا، علي جابر، (2001)، نظرية المعرفة والإدراكات الاعتبارية عند العلامة الطباطبائي، ط1، إيران: دار الهادي، ص 19. تنقل الطباطبائي بين بيئات علمية ثلاث (تبريز والنجف وقم) فخرج على يد العديد من المراجع والعلماء الشيعة، الذين عملوا على نشر الدعوة الإسلامية وأثروا الفكر الإسلامي والإنساني بالعلوم. ولم تنحصر اهتمامات السيد الطباطبائي واجتهاده المتواصل في الفقه والأصول وعلوم اللغة العربية، وإنما تعداها إلى دراسة الرياضيات وعلوم الفلسفة والكلام والعرفان، وطوال مدة دراسته كان محاطاً بالعباية الخاصة من طرف أساتذته الذين كانوا يرون فيه شخصية علمية فريدة. ثم انتقل إلى التدريس في طهران وهناك كان اتصاله بالباحثين في العلوم الإسلامية، في الوقت الذي كان يجري لقاء سنوياً بينه وبين "هنري كوربان" أستاذ الفلسفة بجامعة السوربون، وقد دار البحث فيها حول المسائل المختلفة في الدين والفلسفة. توفي الطباطبائي سنة 1402هـ 1981م. ينظر: أحمد، محمد قيس، (2016)، الرؤية الفكرية والفلسفية للعلامة الطباطبائي، ط1، لبنان: دار الملاك للطباعة والنشر، ص52. ترك مؤلفات كثيرة في الدين والتفسير والفلسفة والأخلاق وغيرها، أهمها "الميزان في تفسير القرآن" و"بداية الحكمة" و"نهاية الحكمة" وأسس الفلسفة والمذهب الواقعي وغيرها من المؤلفات الأخرى.

"العلم الإلهي" و"العلم الإنساني"، مُؤكِّداً على أن الإنسان لا يمكنه أن يحيط بكل ظواهر الوجود وجزئياته، فالعلم الإنساني محدود مقارنة بالعلم الإلهي، وهذا ما تؤكدته الكثير من الآيات القرآنية، والتي منها قوله تعالى: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم" (البقرة: 255). وأيضاً قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء: 85). إن هذه الآيات وغيرهما، تدل حقا على أن العلم الحقيقي أو العلم كله موجود عند الله، أما ما يُعلمه الإنسان فلا يمثل إلا جزءا بسيط جدا من علم الله، إضافة إلى أن هذا الذي يعلمه الإنسان كان بإرادة إلهية، مع العلم أن الله لا يُمكن الإنسان من الاطلاع على العلم، إلا بعد أن يتَّخذ الإنسان أسباب المعرفة بأن يسعى إلى أن يعرف. ومنه قول القرطبي في تفسيره لهذه الآية التي تتحدث عن العلم الإلهي: "إن أحدا لا يعلم شيئا إلا ما يريد الله له أن يعلمه، كما قال الخضر لموسى عليه السلام عندما نقر عصفور في البحر (ما علمي ولا علمك من علم الله، إلا كما نقص هذا العصفور من البحر)" (القرطبي، 2006، 164).

لقد أُولى الطباطبائي مسألة خصائص العلم الإلهي أهمية كبيرة؛ وذلك لارتباطها المباشر بالمعرفة بحيث استخدم في أغلب مؤلفاته وصف "العلم قبل الإيجاد" لتوضيح حقيقة علم الله بموجوداته التي يعلم بما قبل إيجادها، وهنا يقول عن أهم خصائص العلم الإلهي: "إن كل علم متقرر في مراتب الممكنات من العلة المجردة العقلية والمثالية، فإنه علم له تعالى. ويتفرع أيضا أنه سميع بصير، كما أنه عليم خبير، لما أن حقيقة السمع والبصر هي العلم بالمسموعات والعلم بالمبصرات، فهما من مطلق العلم، وله تعالى كل علم". (الطباطبائي محمد حسين، 2006، 246). إن إعطاء الطباطبائي الأولوية والأفضلية للعلم الإلهي على العلم الإنساني في الطبيعة وكذا في الدرجة، لا ينفي أن المعرفة عند الطباطبائي تنطلق من الواقعية، التي مفادها أن هناك وجودا وواقعاً خارج الذات نَتَلَمَّسُهُ من خلال الفعل والانفعال معه، أو الإدراك المطابق للواقع (آل صفا علي جابر، 2001، 103)، فقد أَكَّدَ الطباطبائي على أن قيمة المعرفة تتحدد بمقدار كشفها عن الواقع، ولأنَّنا سَنُبَيِّنُ لاحقا أهمية التمييز الذي أقامه بين ما أسماه بـ"العلم الحُضُوري" و"العلم الحُصُولي"؛ ومدى إسهام هذا التمييز في تطوير وإثراء مكانة المعرفة في الفكر الإسلامي المعاصر، سنكتفي هنا بالإشارة إلى دور هذه الثنائية في التأكيد على ارتباط المعرفة بالواقع حسب الطباطبائي، إذ أن "العلم الحُضُوري" كما يؤكد على ذلك ليس قابلا للخطأ لأنه يقوم على حضور المعلوم بنفسه لا بصورته العلمية عند العالم، أما العلم الحُصُولي القائم على توسط الصور العلمية، فإن التصديق فيه مسبوق بِتَصَوُّرٍ وهو يبدأ من الإدراك الحسي ثم يرتقي إلى الصورة الخيالية (آل صفا علي جابر، 2001، 106). هكذا، تتم المعرفة حسب الطباطبائي بناء على ما أسماه بـ"الإدراك المطابق للواقع"؛ ذلك أن الحواس تُؤثِّرُ في عقولنا فُتُحَدِّثُ معرفة بالواقع، وبالتالي تقوم مكانة المعرفة في فكر الطباطبائي على التأكيد على أن الواقع الخارجي هو أساس تشكيل إدراكنا. وهذا ما يؤكدته الطباطبائي قائلا: "إن في هذا العالم أشخاصا لا يُصَدِّقُونَ

بأنَّ للكون والوجود واقعا خارجا عن ذواتنا، أو هم مُنكِرُونَ للواقع أساسًا، وبالتالي فهم ينكرون العلم أو (الإدراك المطابق للواقع). (الطباطبائي محمد حسين، 1981، 74).

هكذا، يذهب الطباطبائي إلى التأكيد على أن للحس دور مهم في تحديد طبيعة المعرفة، وأن أغلب معارفنا تبدأ به سواء لدى العالم أو لدى الشخص العادي، فهو قاسم مشترك بيننا جميعا، ولو عدنا إلى نص القرآن لوجدنا أن كثيرا من الآيات تُثبِت ذلك؛ إذ نجد أنها تتحدث عن دور الحس في تحصيل المعرفة، ومنه قوله تعالى: "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (المائدة: 31). يؤكد ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن الله تعالى يبين عاقبة الحسد والظلم، بعد أن قتل ابني آدم أحدهما الآخر، فقتله بغيا وحسدا فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القرين الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين (ابن كثير، 1999، 112) وعليه، تدلُّ الآية الكريمة على أن الإنسان يُطَلِّع على صفات الموضوعات بواسطة الحس، ثم يأتي دور العقل في تأويل المعطى الحسي والارتقاء به إلى أن يكون معرفة مُجَرَّدَة، وهنا يقول الطباطبائي: "إن إحدى النتائج الأساسية التي استخلصناها هي أن العلوم والإدراكات تنتهي إلى الحس، ومن الواضح أن من ينظر إلى هذه القضية لأول مرة فهو يعتبر هذا الحكم كليا وعماما، ويظن أن جميع الإدراكات قد ظهرت من الحس، إما بلا وساطة شيء وإما بوساطة التصرف في ظاهرة حسية، وأما إذا لم يكن هناك حس لا بوساطة ولا بغير وساطة فإنه لن يكون هناك أيضا علم ولا إدراك" (الطباطبائي محمد حسين، 1981، 43). وإن الله تعالى -كما يؤكد على ذلك الطباطبائي- هو الذي سَخَّرَ لنا هذا الحس لكي يُكسِبَنَا المعرفة، وإن الله هو من خلق الإنسان وهو من أوجد الموضوعات، وعليه، وفي إطار ثنائية "العلم الإلهي" و"العلم الإنساني"، يمكن التأكيد على لسان الطباطبائي بأن: "الله سبحانه هو الذي عَلَّمَ الإنسان خواص الأشياء التي تناولها حواسه نوعا من النيل، علمه إياها عن طريق الحواس ثم سَخَّرَ له ما في الأرض والسماء جميعا" (الطباطبائي محمد حسين، 2002، 56). أي أن ما يحصل عليه الإنسان من علم هو بهداية إلهية أي أن ما يحصل عليه الإنسان من علم هو بهداية إلهية. على اعتبار أولوية العلم الإلهي على العلم الإنساني كما وضعنا سابقا، هذا بالإضافة إلى أن الطباطبائي يولي أهمية كبيرة للحس كوسيلة للمعرفة، فانه يسعى إلى التأكيد من خلال القول السابق إلى أن الله مكن الإنسان من معرفة حقيقة الموجودات بفضل الحواس التي لها سلطة المعرفة على هذه الموجودات بحيث تنتزع منها المعرفة بها.

لكن، على الرغم من أن الطباطبائي أولى الواقع أهمية كبيرة في تحديد طبيعة المعرفة، إلا أنه لم يقل بأن المعرفة ترجع إلى الإحساس لوحده، مُؤَكِّدًا على أن المعرفة تتم إلا بما هو حسي وما هو عقلي؛ أي بما هو بعدي وما هو قبلي، وهنا يكمن الإسهام الحقيقي للطباطبائي؛ لأنه رأى أن عدم التمييز بين "العلم النظري" و"العلم العملي" هو الذي جعل أغلب

الفلسفات تربط المعرفة بأحد الطرفين على حساب الآخر، إما بالإحساس وإما بالعقل. وبناء عليه، فإن الطباطبائي حتى ولو كان يرى في الإحساس مصدرا مهما للمعرفة، إلا أنه يرى فيه أنه غير كافٍ لتحصيل المعرفة ما لم يتبعه توجيه عقلي. عطفًا على ما ذكرناه، يتبين لنا أولاً أن المعرفة عند الطباطبائي واقعية مصدرها العالم الخارجي، وثانياً - وهذا ما لا يقل أهمية - هو أن المعرفة الحسية لا تكفي للحكم على صحة المعرفة وخطأها مهما تكرر حدوثها، بل لزم تدخل العقل للتمييز بينها، وهنا يمكننا التأكيد على أن طبيعة المعرفة عند الطباطبائي هي حسية وعقلية في آن واحد، وإن هذا الموقف يعتبر من بين أهم إسهامات محمد حسين الطباطبائي في مكانة المعرفة، وذلك لأنه أراد تجاوز ذلك الصراع التقليدي بين المذهبين العقلاني والتجريبي حول مشكلة مصدر المعرفة، فالمذهب العقلي يرجع المعرفة إلى العقل لوحده أما المذهب التجريبي فيرى في التجربة المصدر الوحيد للمعرفة. ويمكننا هنا أن نقارن بين موقف إيمانويل كانط (Emanuel Kant 1724-1804) والطباطبائي؛ فعلى الرغم من أن كانط حاول من قبل تجاوز هذا الاختلاف القائم بين المذهبين، من خلال قوله بأن المعرفة عقلية قبلية وحسية بعدية في ذات الوقت، إلا أنه انتهى مثالياً بربطه للمعرفة بالمبادئ العقلية قبلية وتحديدًا مبدئي الزمان والمكان. إلا أن ما يميز الطباطبائي هو أنه حاول التوفيق بين الموقفين أيضاً مع تأكيده على أن المعرفة حسية وعقلية في ذات الوقت لتكامل دور الحس والعقل في تحصيل المعرفة، ولم يربطها بالشروط العقلية قبلية كما فعل كانط، وهذه هي نقطة الاختلاف بينهما، بحيث أكد الطباطبائي على أنه لا يمكن تصور وجود معرفة إلا بتكامل دور كلا الطرفين، وهذا التصور هو ما مكّنه من تحديد حقيقة العلم.

ثانياً: حقيقة العلم، أو في الرد على الفلسفات المادية

يعتبر محمد حسين الطباطبائي واحداً من أهم الفلاسفة المعاصرين الذين كان لهم وعي بضرورة تطوير الفلسفة الإسلامية، فكان ذلك عن طريق أنجاز مهمتين رئيسيتين أولاهما الرد على الفلسفات الغربية الحديثة والمعاصرة، وتبيان أنها ليست أفضل من غيرها، والعمل ثانياً - وهذا هو الأهم - على الإسهام الفعلي في إثراء الفلسفة الإسلامية من خلال طرح قضايا وإشكاليات تُعبر عن خصوصية الفكر الإسلامي، وكذا تقدم تصورات جديدة حول قضايا سابقة، لذلك، فإذا كان محمد حسين الطباطبائي أهم من حاول الرد على الفلسفات الغربية الحديثة والمعاصرة، فإن: "المحطة الأهم في دراسة فلسفة الغرب، وتقويم اتجاهاتها الحديثة، ومقارنتها بالموروث الفلسفي الإسلامي عنده، قد تجلت في كتاب "أصول الفلسفة والمنهج الواقعي"؛ فقد افتتح الطباطبائي حواراً عقلياً معمقاً مع اتجاهات الفلسفة الأوروبية الحديثة، سيما المادية منها، منطلقاً من ضرورة تحليل أصولها ومركزاتها ونقدها بعد اتساع ظاهرة التغريب ودخول التيار الماركسي خط الصراع وعمل قطاع واسع من المثقفين الدارسين في أوروبا على الترويج لمقولات الفلسفة المادية المناهضة للميتافيزيقا والإيمان بالله تعالى" (الطوري مازن، 2016، 171). وهنا أيضاً تكمن أهم خصيصة تميز فكر الطباطبائي وخصوصاً موقفه من المعرفة؛ ألا وهي أنه لم يكن على غرار المفكرين المسلمين المعاصرين الذين تأثروا بالفكر الغربي المعاصر، بحيث أنهم قاموا بنقل أفكار ومناهج هذا الفكر وحاولوا

تطبيقها على الفكر الإسلامي، إذ نجد أن للطباطبائي أفكاره المتميزة عن آراء المفكرين الغربيين بل والناقدة لها أحيانا، وهي أفكار تعبر عن تميزه الفكري من جهة وعن انتماءه الإسلامي من جهة أخرى.

لقد تبين لنا أن الطباطبائي اتبع أسلوبا يشبه الأسلوب الذي اتبعه أبي حامد الغزالي في نقده للعلوم والمذاهب في عصره؛ إذ أنه يَطْلُعُ على الرأي فيعرضه ثم ينتقده، وهذا ما قام به الطباطبائي إزاء مواقف المذاهب الغربية من العلم، وتحديدًا الفلسفة المادية أو المذهب المادي الذي رأى أن العلم والتفكير وحتى الأشياء بِصُورِها الذهنية كلها أمور مادية؛ وذلك لأن المادة هي الأصل فيها. إن هذا الموقف الدوغماتي هو ما اعترض عليه الطباطبائي فكان أن رفضه وجاء رده على النحو التالي: "لو قلنا بمقالة الماديين من أن كل ما يدركه البشر ويسميه علما وفكرا فهو وليد تفاعل المادتين ومُتَكُون من تأثيرهما وتأثيرهما، تصوير الصورة العلمية والمفاهيم الذهنية والمدرجات العقلية غير منطبقة على شيء من المواد الخارجية ولا على المادة الدماغية، فالحاصل لدى العالم بالشيء شيء وراء الخارج، وراء القوة الفكرية، وإن كان متكونا منها ومبنيا عليها كالثمرة من الشجرة والوليد من الوالدين، لكن الفرع غير الأصل والأساس غير البناء" (الطباطبائي محمد حسين، 2011، 113). وهو موقف نابع من الفلسفة الإلهية التي يمثلها الطباطبائي وينتمي إليها، والتي ترجع جذورها إلى متفلسفة سابقين من أمثال الشيرازي (634-710) الذي يعتبر من أهم مصادر فكر الطباطبائي، وهو يقول عنه هنا: "أسس سيدنا الصدر الشيرازي هذه الفلسفة الإسلامية وأسماها بالحكمة المتعالية، فصارت محورا للدراسات الفلسفية في الجوامع العلمية في بلادنا وما يقارنها، فعكف عليها رواد العلم وعشاق الحقيقة منذ وضع المؤسس حجرها الأساسي وشاد بنيانها ورفع قواعدها" (الطباطبائي محمد حسين، 2011، 17). لذلك نجد أن أغلب أتباع هذه الفلسفة الإلهية هم المفكرين الشيعة من أمثال محمد حسين الطباطبائي، ومحمد مهدي شمس الدين ومرتضى المطهري، وغيرهم، والقاسم المشترك بين هؤلاء وغيرهم هو نقد الفلسفات الغربية والانتصار للفكر الإسلامي والسعي إلى تطويره.

هكذا، يتضح لنا موقف الطباطبائي من حقيقة العلم، إذ رفض رفضا قاطعا اعتبار العلم ماديًا كما تذهب إلى ذلك الفلسفات المادية مُؤَكِّدًا على أن حقيقة العلم مجردة، فهو يرى من جهة أن المعطيات الحسية تنتقل إلى الذهن عن طريق الحواس وهي شرط تكوين المعرفة، لكنه يؤكد في المقابل على أن المعرفة تنتهي مجردة وهذه هي حقيقتها النهائية، لأن المعطيات الحسية بعد أن تنتقل إلى الذهن يتم تجريدها. وإن هذه النقد الذي وجهه الطباطبائي للفلسفات المادية الغربية يعتبر إسهاما كبيرا في الفكر الإسلامي المعاصر؛ لأن ما لاحظته هو أن: "الفلسفات الغربية في اتجاهاتها المادية أفرزت نتائج خطيرة كإنكارها عالم ما وراء المادة والميتافيزيقا وتفسيرها ظاهرة الإدراك البشري تفسيرًا فلسفيا ماديًا ناشئا من الخلط والاشتباه وعدم وضع الشيء في موضعه المناسب، متصورين أن المسائل الفلسفية يمكن استنتاجها من مقدمات علمية تثبت بالتجربة" (المطوري مازن، 2016، 184). ذلك أن الطباطبائي ينفي تماما ما تذهب إليه الفلسفات المادية من دعوى مَادِيَّةِ العلم من خلال

محاولتها تفسير ذلك بالحركة المادية في المخ والأعصاب، ولقد اعتمد الطباطبائي على جملة من الاستدلالات المنطقية التي ساقها لإثبات حقيقة العلم المجردة منطلقاً من القول بأن التجربة تؤكد أن استعمال الحواس يترك أثراً في سلسلة الأعصاب والمخ وينتج ردة مادية في أثنائه، ولكن من غير الممكن قبول فكرة انتقال الواقع المادي الخارجي بخصوصياته إلى تلك المادة الصغيرة في الأعصاب والمخ ليحصل ما يسمى بالعلم؛ وذلك لعدم انطباق صفات المادة وخواصها عليه. (محمد قيس أحمد، 2016، 84)

عطفاً على ما سبق ذكره، فإن الطباطبائي يُعْتَبَرُ من أهم ممثلي الفلسفة الإلهية، وهي الفلسفة التي تنكر على الفلسفات المادية رفضها لكل فكر ميتافيزيقي بعدي، ولكن الطباطبائي لم يتوقف عند حدود الدفاع عن الفلسفة الإلهية، وإنما عمل جاهداً على الرد على الفلسفات المادية بتمحيص موقفها وتبيان مواطن الخطأ فيها، ومنه قوله: "إننا نلاحظ اختلافاً في أثنائه استعمال الحواس (أخطاء الحواس) في الأشياء المحسوسة، ولا يدعنا هذا أن نقول بأن واقع العالم المادي الخارج عنا قد تم إدراكه كما هو وحصلنا عليه بنفسه. إذن هذه الصورة الإدراكية ليست حالة في مادتنا ولا في المادة الخارجة عنا، وخلاصة الحديث أنه لما كانت هذه الصورة الإدراكية تفتقد الخواص العامة للمادة، فإن الصورة إذن غير مادية" (الطباطبائي محمد حسين، 1981، 120). أو هي على الأقل غير مادية فقط، لأن الإدراك لا يحدث بالضرورة عند تلقي أعضاء الحس للمعطيات الحسية، وإنما بعد تأويل هذه المعطيات نتيجة تدخل العقل، أي أنه على الرغم من أهمية الحس في تحصيل المعرفة، إلا أنه لا يعتبر كافياً لوحده لتحقيق هذه النتيجة، وما يثبت أن الحس يؤدي دوراً محدداً فقط من عملية الإدراك هو أن: "التجربة والمشاهدة أثبتت أننا عندما نستعمل حواسنا، فإن المادة الواقعة تترك أثراً في سلسلة الأعصاب والمخ، وينتج عن هذا رد فعل مادي يظهر فينا بمجرد استعمال الحاسة ويزول مباشرة بعد صرف تلك الحاسة عن وظيفتها، ولكننا نظفر بشيء نتيجة هذا العمل نسميه بالإدراك". (الطباطبائي محمد حسين، 1988، 115)

لا ينكر الطباطبائي دور الإحساس في تحصيل العلم كما تبين لنا ذلك من قبل، لكنه يرفض تماماً اعتبار العلم مادياً، مؤكداً على أن الإدراك الذي به يحصل العلم يختلف عن المادة التي تم الإدراك بناءً عليها، كما إن العلم لا يتصف بالضرورة بما يتصف به ما هو مادي؛ إذ قد لا يترتب بالضرورة عن وجود مادي خارجي، وهذا ما نجده في العلم من جوانب روحية مثلاً، وهنا يقول الطباطبائي: "فحصول العلم للعالم من خواص العلم، لكن لا كل حصول كيف كان، بل حصول أمر بالفعل فعلية محضة لا قوة فيه لشيء مطلقاً، فإننا نشاهد بالوجدان أن المعلوم من حيث هو معلوم لا يقوى على شيء آخر، ولا يقبل التغير عما هو عليه فهو حصول أمر مجرد عن المادة خال من غواشي القوة، فحضور المعلوم يستدعي كونه أمراً تاماً في فعليته من غير تعلق بالمادة" (الطباطبائي محمد حسين، 1999، 175). وهنا يتجلى لنا من خلال موقف الطباطبائي المؤكد على عدم مادية العلم، أنه لا ينكر دور المادة وأهميتها في تحصيل العلم، لكنه يرى أنه دور يقتصر على كونها بداية وليست نهاية: "فلو كانت الصورة الإدراكية مخزونة في الدماغ أو منعكسة في الأعصاب فلا منتدح عن اتصافها بصفة محالها، فلا يقع الجسم

والسطح والخط عندئذ في أفق الإدراك إلا على النحو الذي ثبت لمراكزها. وأما بناء على ما يميل إليه الماديون ويُصِرُّون عليه من حصر العلم والإدراك على الأثر البارز في الدماغ أو المنبسط عليه يمتنع إدراك أمر واحد متصل، وهذا البيان وما تقدمه يبطل نظر الماديين في ماهية العلم" (الطباطبائي محمد حسين، 2011، 137). وهنا ينظر الطباطبائي إلى الإدراك على أنه عملية عقلية لا تتدخل المادة بطريقة مباشرة في تحديد طبيعته؛ وذلك لأن المادة متغيرة أما الإدراك فثابت، وحتى ولو أمكننا إثبات تأثر المادة الدماغية بالمادة الخارجية، إلا أن الفكر يتجاوز هذا التأثير بإبداع موضوعات تتجاوز المعطيات المادية، ومنه يصل الطباطبائي إلى أن العلم مجرد لا مادي، كما أن العلم إما حضوري وإما حصولي.

ثالثاً: العلم الحضوري والعلم الحصولي

يعتبر تقسيم الطباطبائي العلوم إلى قسمين الأول هو "العلم الحضوري" أما الثاني فهو "العلم الحصولي" من أكبر إسهاماته، إذ نجده يتحدث عنهما في أغلب مؤلفاته وهذا ما يدل على الأهمية الكبيرة التي أولاها لهذه الثنائية، ومن بين أهم التعريفات التي قدمها لهذين العلمين نذكر قوله: "إن لنا علماً بالأمور الخارجية عنا في الجملة، بمعنى أنها تحصل لنا وتحضر عندنا بما هيأتها لا بوجوداتها الخارجية التي تترتب عليها الآثار، فهذا قسم من العلم ويسمى "علماً حصولياً" (...). أما علمنا بذواتنا إنما هو بحضورها لنا بوجودها الخارجي الذي هو ملاك الشخصية وترتب الآثار وهذا قسم آخر من العلم ويسمى "العلم الحضوري" (الطباطبائي محمد حسين، 1999، 173) وعليه، يتبين لنا أن الطباطبائي يتخذ من كيفية حضور المعلوم أمام العالم معياراً للتمييز بين العلوم، فإذا كان حضور المعلوم بوجوده الفعلي صَنَقَهُ على أنه علم حضوري، أما إذا كان حضور المعلوم بماهيته اعتبره علماً حصولياً، أما القاسم المشترك بينهما فيتمثل في اطلاع العالم على المعلوم سواء في ماهيته أو في وجوده، إضافة إلى أن العلم الحصولي لاحق على العلم الحضوري.

لم يهمل محمد حسين الطباطبائي الحديث عن حقيقة العلاقة التي تربط بين العلم الحضوري والعلم الحصولي، فتبين له أن أهم ما يميز هذه العلاقة هو أن العلم الحضوري هو أصل كل العلوم الأخرى أي العلوم الحصولية، وبيان ذلك: "أن الصورة العلمية -كيفما فرضت- مجردة من المادة عارية من القوة، وذلك لوضوح أنها -بما أنها معلومة- فعلية لا قوة فيها لشيء البتة، فلو فرض أي تغير فيها كانت الصورة الجدية مبينة للصورة المعلومة سابقاً ولو كانت الصورة مادية لم تأب التغير" (الطباطبائي محمد حسين، 2006، 154). وهنا تتضح لنا أكثر حقيقة العلاقة القائمة بين العلم الحضوري والعلم الحصولي، والتي مفادها أن العلم الحضوري هو علم بوجود خارجي، أما العلم الحصولي فهو نظر عقلي في هذا الوجود، هكذا يصبح العلم الحضوري مادة للعلم الحصولي، وهذا ما يؤكد الطباطبائي بقوله: "في مورد يوجد فيه العلم الحصولي، فالعلم الحضوري فيه موجود، إذن نستطيع من هذا المنطلق أن نوسع دائرة البرهان لنمنح النتيجة عموماً أكثر فنقول: لما كان كل علم وإدراك مفروض يتمتع بخاصية الكشف عن الخارج وهو صورته، فلا بد أن يكون متمتعاً بعلاقة الانطباق على خارجه وأن لا يكون

منشأً للآثار، ومن هنا يلزم أن نكون منتهين إلى واقع هو منشأً للآثار ينطبق عليه ذلك العلم، أي أننا مدركون لذلك الواقع بالعلم الحضورى ثم ندركه بالعلم الحصى " (الطباطبائي محمد حسين، 1988، 52). أي إن العلم الحضورى سابق معرفياً ومنطقياً على العلم الحصى، بحيث يمكننا التأكيد هنا من خلال قول الطباطبائي أن كل علم حصى يرجع في أصله إلى العلم الحضورى، الذي يُمثِّلُ التقاء الذات بموضوعها مباشرة فتَكسِبُ حوله معرفة تسمى علماً حضورياً؛ وذلك لحضور الموضوع فعلياً، وتُصبحُ هذه المعرفة في مرحلة لاحقة علماً حصى من خلال تذكُّر الموضوع مثلاً دون شرط حضوره. هكذا، فقد أدرك الطباطبائي أنه لفهم التنوع القائم بين العلوم وكذا الإدراك، وجب علينا الوجه نحو أصلها والذي تبين له أنه يتمثل في العلم الحضورى، وهنا يمكننا تشبيه العلاقة بين العلم الحضورى وبقية العلوم كما تصورها الطباطبائي، كالعلاقة بين الجذور والأغصان.

بناءً على ما سبق ذكره، يتضح لنا أن الطباطبائي يعطي الأولوية في الترتيب للعلم الحضورى على العلم الحصى، بحيث يكون الثاني لاحقاً على الأول، وهنا يمكننا أن نؤكد أن أي علم حصى كان بالضرورة علماً حضورياً، أما الفضل في حدوث العلم الحضورى فهو "الإدراك الحسى" الذي يقوم بدور الكشف عن الواقع، وهنا يقسم الطباطبائي العلم الحضورى إلى أربعة أقسام عامة، والتي ينتج عنها التنوع في العلوم والإدراكات وهي: "علم النفس بذاتها، وعلمها بأفعالها في إطار وجودها وآثارها، وعلمها بقواها ووسائلها التي تستخدمها في تحقيق أفعالها، والعلم بالخواص المادية للواقعيات المادية الخارجية التي تتصل بالنفس عن طريق الحواس والقوى الحساسة" (محمد قيس أحمد، 2016، 92). وإذا كان الطباطبائي يقسم العلم الحضورى إلى أربعة أقسام، فإننا نجد العلم الحصى إلى "تصورات" و"تصديقات"، التصديق هو التصور الذي يتبعه حكم النفس وإدعائها سلباً أو إيجاباً، ثم إن التصورات تنقسم إلى ماهيات واعتبارات، والماهيات هي مفاهيم حقيقية تحكي عن الواقع الخارجى، أما الاعتبارات فهي مفاهيم غير حقيقية؛ لأنها تحكي عن أمر ذهني، وإن كان له لون من ألوان الحكاية عما في الخارج كالحكم، وهذا لون آخر من التكثر في الإدراك هو الحقيقة والاعتبار، ومن خلال المفاهيم الماهوية تتمكن من معرفة كُنْهِ الأشياء لا أشباحها (آل صفا آل جابر، 2001، 109). كما إننا نجد أحياناً أخرى يتحدث عن التقسيم ذاته، لكنه بتسمية أخرى مفادها أن العلم الحصى ينقسم إلى قسمين هما "الحقيقي" و"الاعتباري" ويعرفهما في بداية "الحكمة" بقوله: "الحقيقي هو المفهوم الذي يوجد تارة بوجود خارجي فيترب عليه آثاره، وتارة بوجود ذهني لا تترتب عليه آثاره، وهذا هو الماهية. والاعتباري ما كان خلاف ذلك، وهو إما من المفاهيم التي حيثية مصداقها حيثية أنه في الخارج كالوجود وصفاته الحقيقة كالوحدة والفعلية وغيرها، فلا يدخل الذهن وإلا لانقلب. وإما من المفاهيم التي حيثية مصداقها حيثية أنه في الذهن كمفهوم الكلي والجنس والنوع، فلا يوجد في الخارج وإلا لانقلب" (الطباطبائي محمد حسين، 1999، 186). ويضيف في "نهاية الحكمة" قائلاً: "الحقيقي هو المفهوم الذي يوجد تارة في الخارج فتترتب عليه آثاره، وتارة في الذهن فلا تترتب عليه آثاره الخارجية كمفهوم الإنسان (...). والاعتباري خلاف الحقيقي، وهو إما من المفاهيم التي حيثية مصداقها حيثية أنه في الخارج

مرتبا عليه آثاره، فلا يدخل الذهن الذي حَيْثُتُهُ حَيْثُتُهُ عدم ترتب الآثار الخارجية لاستلزام ذلك انقلابه عما هو عليه كالوجود وفاته الحقيقية — كالوحدة والوجوب ونحوها — أو حيثية أنه ليس في الخارج كالعدم". (الطباطبائي محمد حسين، 2006، 186)

بناء على ما ذكرناه، تبين لنا من آراء الطباطبائي حول العلم الحضورى والعلم الحصى أن الفرق الجوهرى بينهما يمكن فى أن العلم الحضورى هو الذى نطلع فىه على الموضوع اطلاعا مباشرا كما هو فى وجوده الواقعى، أما العلم الحصى فهو على العكس من ذلك، فإنه يحتاج جهدا لتحصيل المعرفة، وهنا يضيف الطباطبائي قائلا: "لا بد من الالتفات إلى أن العلم الحضورى (بأقسامه الأربعة) لا يستطيع أن يولد بنفسه العلم الحصى، بل لا بد أن نمد أيدينا إلى مجال آخر؛ فتلك القوة التى تسلطت على الظاهرة الحسية وأدركت أجزاء الصورة الحسية والنسب بين أجزائها ثم حكمت، قد أدركت تلك المعلومات فى حالة كونها مجردة من الآثار الخارجية (...). ومن هنا فإن لهاته القوة المسماة "القوة المبدلة للعلم الحضورى إلى علم حصى" لونا من الاتصال بجميع هذه العلوم والإدراكات الحضورية، وهى تستطيع أن تُحصِّلَهَا، أى أن تبدلها إلى ظواهر مجردة من آثارها الخارجية وتصوغ منها علما حصىا" (الطباطبائي محمد حسين، 1988، 65). وإن هذه القوة هى التى ينتج عنها ما أسماه الطباطبائي بالمفاهيم الاعتبارية، أى المفاهيم التى تنتج عن تعقل الذهن للمعطيات الحسية، وهى ما يسميها أيضا بالإدراكات الاعتبارية.

رابعا: مكان الإدراكات فى المعرفة، أو فى الفرق بين الإدراكات الاعتبارية والإدراكات الحقيقية

إذا كان الطباطبائي قدم إسهامات كبيرة فى مجال مكانة المعرفة، فإن إسهامه الأكبر كان حول مسألة الإدراك، وتحديدًا تمييز بين الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية، فقد أطلق على بعض الإدراكات اسم الحقائق؛ وهى التى تكون مطابقة للواقع، وذلك سعيًا منه إلى تمييزها عن نوع آخر من الإدراكات لا وجود لها فى الواقع، أطلق عليها إسم الاعتبارات أو الأوهام، وإن السبب الرئيس الذى جعل الطباطبائي يلجأ إلى وضع هذا التمييز بين نوعي الإدراكات هو سعيه للإجابة عن سؤال تبين له أن الفلاسفة السابقين لم يقدموا إجابة واضحة عنه، ألا وهو: "أىكون الواقع ونفس الأمر مطابقا لما نحسه وننتقله أم لا؟ وبعبارة أخرى، هل كل إدراكاتنا حقيقية ومطابقة للواقع أم لا؟". (الطباطبائي محمد حسين، 1988، 65)

أولى الطباطبائي أهمية كبيرة لما أسماه بالإعتبار أو الإدراكات الاعتبارية، وهو مفهوم لم يسبقه أحد إلى الحديث عنه، لذلك فقد ركز الطباطبائي على تحديد معنى الاعتبار، إذ نجده يقول فى إحدى المواضع بأن الاعتبار هو: "أولا ما كان من المفاهيم محمولا على الواجب والممكن معا كالوجود والحياة فهو اعتباري، وإلا لكان الواجب ذا ماهية تعالى عن ذلك. وثانيا، أن ما كان منها محمولا على أزيد من مقولة واحدة كالحركة فهو اعتباري، ولا لكان مجنسا بجنسين فأزيد وهو محال. وثالثا أن المفاهيم الاعتبارية لا حدَّ لها، ولا تؤخذ فى حد ماهية من الماهيات" (الطباطبائي محمد حسين، 1999، 187). كما يقول

عنه بأنه: "إعطاء حد الشيء أو حكمه لشيء آخر بتصرف الوهم وفعله" (الطباطبائي محمد حسين، 2007، 246). كما يبين لنا الطباطبائي في معرض حديثه عن الاعتبار بأن الاعتبار نشأ من الرغبة نحو الكمال أو تجاوز النقص الموجود في الإنسان، وكلاهما أمران طبيعيان في الإنسان، سواء الشعور بالنقص أو السعي نحو تحقيق الكمال.

وبالفعل، فقد ارتبط حديث الطباطبائي عن الاعتبار بالحاجة إليه التي رأى أنها تكون من ناحيتين الأولى هي الكمال الإنساني، والثانية هي صدور الفعل وكلاهما مكمل للآخر، فوجود الإنسان ناقص وهو يسعى إلى الكمال من خلال الفعل الذي يتطلب بدوره الإرادة. وبناء عليه، فإن الكمال الإنساني لو فرض متعددًا ومتنوعًا بحسب جهاته وحشياته، كان العلم الاعتباري كذلك، أي أن الكمال الإنساني يستدعي علومًا اعتبارية متعددة (آل صفا علي جابر، 2001، 121). ورغم صعوبة دراسة تاريخ الإدراكات الاعتبارية الإنسانية، ونظرًا لما لها من الأهمية المعرفية والاجتماعية فإن الطباطبائي يقترح ثلاثة طرق لذلك هي:

أولاً- البحث بطريقة سير القهقري للاقترب تدريجياً وشيئاً فشيئاً من الاعتبارات الأصلية الأولى.

ثانياً- دراسة المجتمعات غير المتقدمة والوقوف على أفكارها الاجتماعية، ثم يقترح دراسة المجتمعات الأخرى من الكائنات الحسية دون أن يوضح مقصوده منها، ولعل مراده دراسة السلوك الغرائزي الموجود في تجمعات الكائنات الحية.

ثالثاً- دراسة النشاطات الفكرية والذهنية والعملية للأطفال، للوقوف على المعلومات الممكنة حول البدايات الأولى للأفكار الاجتماعية أو الفردية الفطرية. (آل صفا علي جابر، 2001، 133)

أما عن تمييز الطباطبائي بين الإدراكات الاعتبارية والإدراكات الحقيقية، فإنه أدرج التصورات والتصديقات ضمن الإدراكات الحقيقية، أي التي لها علاقة مباشرة بالواقع، عكس الإدراكات الاعتبارية التي ليست كذلك، بل هي: "فروض صاغها الذهن لتأمين احتياجات الحياة، وهي تتصف بالوضعية والإنشائية والاعتبارية ولا علاقة لها بالواقع" (الطباطبائي محمد حسين، 1988، 175). إن من معالم المنهج الفلسفي عند الطباطبائي هو فصله وتمييزه بين الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية؛ لأن حصول الخلط بينهما يوجب الاضطراب في تصور المسائل الفلسفية وقد أدى هذا الخلط في علوم مختلفة إلى لباسٍ وتشويش كما يلاحظُ في بعض مسائل الفقه، ولقد اضطلع الطباطبائي بمهمة كشف النقاب عن هذه المسألة، وتوصل إلى تفسير مُحدّد للفرق بين هذين النوعين من الإدراكات. (المطوري مازن، 2016، 2016) وإذا أردنا تبيان الفرق الجوهرى بين الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية، قلنا أن الإدراكات الحقيقية لا تتغير بل تثبت على حال، أما الإدراكات الاعتبارية فتتطور وتبديل بحسب الاحتياجات الطبيعية وكذا العوامل البيئية، أي أن الإدراكات الحقيقية ثابتة ومطلقة، أما الإدراكات الاعتبارية فنسبية ومؤقتة، لذا، وبناء على هذا الاختلاف بين نوعي الإدراكات رأى الطباطبائي ضرورة التمييز بينهما؛ لأن عدم التمييز بينهما هو الذي أدى إلى الخلط بين العلوم والوصول إلى الكثير من الأحكام المتناقضة، وذلك نتيجة الخلط بين المطلق والنسبي.

يعتبر حديث الطباطبائي عن الإدراكات الاعتبارية إسهاما كبيرا في مكانة المعرفة، وهي مسألة ارتبطت بالطباطبائي دون غيره من فلاسفة الإسلام، دون إنكار قيمة الإسهامات التي قدموها في مجال الدراسات المعرفية من أمثال الفارابي وابن سينا وأبي حامد الغزالي، بل يمكن التأكيد أيضا أنه حتى بالنسبة إلى الفلاسفة الغربيين خصوصا الذين أولوا أهمية كبيرة إلى العقل من أمثال ديكارت لم يميزو بين "الإدراكات الحقيقية" و"الإدراكات الاعتبارية"، ذلك أن الطباطبائي أولى مسألة الإدراك بصفة عامة والإدراكات الاعتبارية بصفة خاصة أهمية كبيرة؛ وذلك سعيا منه إلى تفسير كيفية تشكّل الكثير من المفاهيم الاعتبارية من قبيل اللغة والكلام، كما أن التمييز بين الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية يُجَنَّبُ الوقوع في خطأ منهجي حسيم يتمثل في تعميم الأساليب العقلية الجارية في الحقائق لتشمل الاعتباريات أو العكس وتكون النتائج بالتالي خاطئة (محمد قيس أحمد، 2016، 99). ولكي تتضح لنا أكثر أهمية الإسهام الذي قدمه الطباطبائي في مجال البحث المعرفي من خلال حديثه عن الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية نحاول التعمق أكثر في مفهومه للإدراكات الاعتبارية والحاجة إليها، إذ تحمل كلمة الاعتبار معاني متعددة وقد تكون أحيانا مختلطة، لذا فإننا نجد أن الطباطبائي عَدَّهَا سعيا منه إلى حصر معانيها من جهة، وتبيان مفهومه الدقيق للاعتبار من جهة أخرى، أما بالنسبة إلى أهم المعاني التي تحملها كلمة الاعتبار فهو يرى بأنها خمسة، جاءت على النحو التالي:

أولا الاعتبار بما ليس منشأ للآثار الخارجية بالذات في قبال الأصيل الذي هو منشأ للآثار. أما الثاني فهو ما ليس له وجود منحاز ومستقل في نفسه عن غيره في قبال الحقيقي الذي له وجود منحاز. في حين أن المعنى الثالث فهو من المفاهيم الكامنة في الذهن واتصافها في الخارج. أما الرابع فيكون فيه الاعتبار بمعنى التشبيه لوجود مناسبة ما لأجل الحصول على غاية عملية. أما الخامس فهو المفاهيم التي تستعار من مفاهيم أخرى (محمد قيس أحمد، 2016، 105). ولا يُنَكِّرُ الطباطبائي أهمية هذه المعاني، خصوصا وأنها ترتبط بمجالات محددة وباستعمالات معينة.

وبناء عليه يذهب الطباطبائي إلى التأكيد على أن الإدراكات الاعتبارية تتميز عن الإدراكات الحقيقية؛ وذلك لعدة أسباب أهمها أن الإدراكات الاعتبارية لا تندرج ضمن المقولات العشر، كما أنه لا يمكن إقامة البرهان عليها، ذلك أنها ليست لها قيمة منطقية، هذا إضافة إلى أن الإدراكات الاعتبارية تتوسط بين النفس والعالم الخارجي، إذ أنها لا تتطابق بالضرورة مع المادة الخارجية عكس ما نجده بالنسبة إلى الإدراكات الخارجية.

خاتمة

لقد أولى الطباطبائي أهمية كبيرة للبحث في مسائل المعرفة، على غرار ما نجده في الفلسفات الغربية الحديثة والمعاصرة، وهذا ما ميَّزَهُ في ذات الوقت عن الفلسفات الإسلامية الكلاسيكية التي لم تُفَرِّد قضايا المعرفة بِبَحْث خاص مثل اهتمامها

بالوجود، إذ نجد أن الطباطبائي اتخذ موقفا خاصا به إزاء مشكلات المعرفة مثل مصدر المعرفة وقيمة المعرفة وحدود المعرفة، وهنا وجب التأكيد على أنه يُعتَبَرُ أيضا استثناء في الفكر الإسلامي المعاصر؛ لأنه درس مشكلات المعرفة دراسة مستقلة. إن أول وأهم ما يحسب للطباطبائي في مجال مكانة المعرفة هو تأكيده على أن دراسة ما هو ابستمولوجي لا يمكن أن يكون إلا في إطار ما هو وجودي، لذا فإننا وجدنا أن حديثه عن المعرفة كان دائما من خلال حديثه عن الوجود، أن أنه أدرك أهمية الارتباط بين الذهني والخارجي وهذا ما أهملته الكثير من الفلسفات السابقة سواء عند الغربيين أو عند المسلمين. كما انتقد الطباطبائي وبشدة الفلسفات السابقة خصوصا منها المادية حول مفهوم العلم الذي حصرت في علاقته بالواقع معتبرة أن العلم مادي فقط، وعلى الرغم من أن الطباطبائي لا ينكر أهمية الواقع والعلم المترتب عنه، إلا أنه اعترض على حصر العلم في الجانب المادي لوحده إذ اعتبر - وذلك في إطار تمثيله للفلسفة الإلهية - أن العلم روحي من ناحية كما أنه مادي من ناحية أخرى.

لم تتوقف إسهامات الطباطبائي عند هذا الحد، بل نجده يميز بين العلم الحضورى والعلم الحصىلى وذلك فى إطار دراسته لعلاقة الذات بموضوع المعرفة، مبينا أن العلم الحضورى هو كل علم يتم فيه حضور المعلوم أمام الذات ويتدخل فيه الإدراك الحسى، أما العلم الحصىلى فهو ما لا يحضر فيه المعلوم أو الموضوع وإنما صورته فقط ويتدخل فيه الإدراك العقلى، ليصبح العلم الحصىلى لاحقا على العلم الحضورى. كما يعتبر تمييز الطباطبائي بين الإدراكات الحقيقية والإدراكات الاعتبارية من أهم إسهاماته فى مجال الدراسات المعرفية، إذ بين المجال الخاص بكل منهما بحث أن الاعتبارات الحقيقية هي التي تعبر عما هو موجود فى الواقع، أما الإدراكات الاعتبارية فهي ما لا يوجد فى الواقع، وقد سعى الطباطبائي من وراء هذا التمييز إلى تحرير البحث العلمى من الالتباس الناتج عن الخلط بين نوعى الإدراكات وتوظيف كل نوع خارج مجاله الخاص.

هكذا، وبناء على ما ذكرناه فى هذه الدراسة، يمكننا أن نصل إلى التأكيد على أن محمد حسين الطباطبائي يعتبر أنموذجا متميزا جدا من الفلاسفة المسلمين المعاصرين من ناحية تَوَجُّهِهِ إلى الاهتمام بالمعرفة وكل القضايا والإشكاليات المرتبطة بها، وإن مواقفهم إزاء هذه الإشكاليات لم تكن تكرار لبداهات سائدة، وإنما عَبَّرَتْ عن فهم خاص به يمكن اعتباره منظورا إسلاميا متميزا أثرى الفكر الإسلامى المعاصر من جهة، ومَهَّدَ الطريق من جهة أخرى أمام المفكرين الإسلاميين الآخرين نحو الاهتمام أكثر بهذا المبحث.

إن أهم ما يمكن أن نستنتجه من هذه الدراسة هو أن الإسهامات التي قدمها محمد حسين الطباطبائي أثبتت فعلا أنه بإمكان الفيلسوف المسلم وبالتالي الفكر الإسلامى أن يكون فكرا مبدعا لا مقلدا، ليس فقط فى مجال المعرفة وإنما فى كل المجالات، وذلك بشرط أن يعمل مفكرو الإسلام على طرح القضايا والمشكلات التي تُعَبِّرُ عن خصائص ومميزات الفكر الإسلامى فى حد ذاته فى إطار البيئة الثقافية والفكرية التي ظهر نشأ، لا أن نزلها عنها بأن نعيد طرح المشكلات التي تخص

الفكر الغربي، هذا من جهة ومن جهة ثانية -وربما هي الأهم- لابد على المفكر المسلم أن يعمل على نقل الفكر الإسلامي إلى العالمية بعد الانطلاق من هذه الخصوصية.

لقد سعينا من وراء التساؤلات المطروحة في هذه الدراسة وحاولنا الإجابة عنها إلى تبيان الدور التي قام به محمد حسين الطباطبائي في تطوير الفكر الإسلامي عموماً وإسلامية المعرفة على وجه التحديد، وإننا نروم إلى توجيه انتباه غيرنا من الباحثين إلى أهمية هذا النوع من الدراسات آملين أن تكون دراستنا حول الطباطبائي نقطة انطلاق نحو بحوث أخرى ليس فقط حول الطباطبائي، وإنما حول المفكرين المسلمين وتحديد المعاصرين الذي أسهموا في تطوير الفكر الإسلامي والرقى به.

قائمة المراجع

- 1- الطباطبائي، محمد حسين، (1981)، أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، ج1، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، لبنان: دار المعارف للمطبوعات.
- 2- الطباطبائي، محمد حسين، (2002)، عرفان النفس، تحقيق قاسم الهاشمي، ط1، لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- 3- الطباطبائي، محمد حسين، (2011)، أصول الفلسفة، نقله إلى العربية جعفر السبحاني، ط1، لبنان: دار جواد الأئمة.
- 4- الطباطبائي، محمد حسين، (1988)، أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، ج2، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، ط2، لبنان: دار التعارف للمطبوعات.
- 5- الطباطبائي، محمد حسين، (1999)، بداية الحكمة، حققه وعلق عليه عباس علي الزارعي، ط17، لبنان: مؤسسة النشر الإسلامي.
- 6- الطباطبائي، محمد حسين، (2006)، نهاية الحكمة، ج2، حققه وصححه عباس علي الزارعي، ط4، إيران: مؤسسة النشر الإعلامي.
- 7- الطباطبائي، محمد حسين، (2007)، مجموعة رسائل الطباطبائي، تحقيق صباح الربيعي، ط1، إيران: منشورات باقيات.
- 8- اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (1999)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، ط2، السعودية: دار طيبة.
- 9- القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري، (2006)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، مصر: مؤسسة الرسالة.
- 10- أحمد، محمد قيس، (2016)، الرؤية الفكرية والفلسفية للعلامة الطباطبائي، ط1، لبنان: دار الملاك للطباعة والنشر.
- 11- آل صفا، علي جابر، (2001)، نظرية المعرفة والإدراكات الاعتبارية عند العلامة الطباطبائي، ط1، إيران: دار الهادي.
- 12- المطوري، مازن، (2016)، منازل الفلسفة الغربية في فكر الطباطبائي، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العدد 02، ص.ص.166-184.